نحو مسرح عربي جديد ومتجدد

مهرجان المسرح العربي

الدورة الرابعة عشرة

من 10 إلى 18يناير 2024

جمهورية العراق

بغداد

اليوم الرابع، الأحد 14 يناير 2024

الجلسة الثانية: 11:50 – 12:50 ظهراً

إدارة الجلسة: د. عماد الخفاجي (العراق)

المحور: مسرح الصورة بين التعميق والتفريغ. تجارب عربية عربية أنموذجاً

المداخل: أ. محمد الحر (المغرب)

المداخلة: الصورة المسرحية

الصورة المسرحية مسرحية "سماء أخرى" لمسرح أكون نموذجا

محمد الحر

ديبـاجة

الحديث عن الصورة اليوم هو حديث عن موضوع يبدو ظاهريا آمنا ، لكنه في حقيقة الأمر ، شديد الحركة والتعقيد ، سبق أن شملته الدراسات والبحوث العلمية في شتى العلوم الإنسانية بفيض وافر من البحث والتفكيك. لكن حديثي هنا عن الصورة المسرحية ، سيكون حديثا إجرائيا أكثر منه نظريا انطلاقا من عرض "سماء أخرى" لفرقة مسرح أكون و التي قدمت للمرة الأولى سنة 2019 .

كيف تنبثق الصورة في هذا العرض ؟ كيف نصنع صورنا المسرحية ؟ ماهي الصور التي تتولد منها وعنها تصوراتنا الفنية ؟ من أي صور ننطلق و ما هي الصور التي ترافقنها في بحثنا ؟ وكيف تتحدد الهوية من خلال الصورة اليوم في ظل أسئلة جديدة يحملها جيل ما بعد الكولونيالية وجيل تناسج الثقافات والفرجات؟ ستكون هاته هي الأسئلة التي ستحاول هذه الورقة الخوض فيها . و تماشيا مع طبيعة الموضوع ستكون هذه الورقة مصحوبة ببعض الصور .

مسرحية "سماء أخرى"

تبتعد أحداث مسرحية **سماء أخرى** المستوحاة بحرية عن مسرحية **يرما** للكاتب الإسباني فيديريكو غارسيا لوركا ، عن بادية اسبانيا القرن الماضي لتستقر في بيت حديث في ضواحي مدينة الرباط اليوم . فضاء حضري تعيش فيه الطبقة البورجوازية الجديدة في معزل عن الناس . فضاء لشخصيات لا تحمل اسماء بل تتم الإشارة اليها من خلال وظيفتها . من جهة ، هناك الزوجة ، فنانة فوتوغرافية لا تستطيع خلق الحياة في صورها الجامدة، و في الجهة الأخرى ، هناك الزوج الذي يعمل كمهندس معماري مشهور لكنه لا يستطيع خلق بيت و أسرة . تحول الزوجة فناء مسكنها الى استديو للتصوير نزولا عند رغبة زوجها الذي يرفض خروجها خارج المنزل. فتجد نفسها معزولة في هذا الفضاء ، حيث يدور كل شيء بينهما من خلال لغة الصمت ، طيلة عامين بدون أطفال . و مع ذلك لا تفقد الرجاء و تحاول بكل السبل الحصول على مرادها دون أن تخون زوجها رغم إعجابها الخفي بصديق طفولتها . يكفي بضع كلمات تتبادلها مع هذا الآخر لكي تشرع جهنم بابها على عنف دفين حتى يصبح فضاء البيت فجأة سجناً أو قبرا أو فخاً أو قفرا شاسعا و تتسع الهوة بينهما ليصبحا مجرد غريبين تحت سقف واحد و سماء واحدة . غربة تدفع الزوجة نحو التمرد و القتل في النهاية .

هذا التحول في طبيعة الفضاء هو نقطة الانطلاق التي تفتح أمامنا مساحات رحبة من الصور المشهدية المثيرة التي من شأنها أن تؤطر هذه التراجيديا المعاصرة بتصور يبتعد عن المحلية المغربية و عن فلكورية البادية الاسبانية و عن تلابيب القصة و الحدوثة لكي يقترب من العوالم الجوانية التي يتجاور فيه الواقعي و السحري.

اعتقد أننا بحاجة اليوم إلى خلق كتابتنا الركحية وأجوبتنا الخاصة على هذا الكم الهائل من القلق الذي يسكن الانسان المعاصر . وهذا يعني أننا بحاجة إلى قراءة النصوص الكلاسيكية التي بإمكانها ان تمنحنا منظارا حيا يتجاوب مع أسئلة عصرنا . يكمن محرك المسرحية في كونها لا تتحدث فقط عن امرأة حكم عليها بالعقم ، بل عن انسان يائس يصبو لأن يكون محبوبا . يصبح الحديث عن العقم هنا رمزيا بالدرجة الأولى ، ويمكن أن يجعل من أي فرد يرى أحلامه موءودة . انسانا مختلا وخطرا على الاخرين.

يبحث المقترح المشهدي عن البساطة و التكثيف الرمزي من خلال الصمت الممتلئ ومن خلال توليفة ملتحمة من صورة و أداء و كلمة و ضوء و ديكور و ازياء و موسيقى ، في حكاية واحدة لها القدرة على التفجر في

الفضاء . يختار التصور الاخراجي هنا الاعتماد على شاعرية الصورة للتعبير عن الأفكار المسطرة في المتن النصي بالعمل على تجريده من نزعته الاسبانية و جعله حاضرًا في الرباط المعاصرة ، و جعل شخصياته ، نساءا و رجالا بشرا يمكن مصادفتهم في أي مكان الآن .

شخصيا لست مولعا بالإخراج بالمعنى الكلاسيكي للكلمة ، ذلك الإخراج الذي يقتضي إدارة « توجيهية » للممثلين مع توجيهات متعلقة والحركات و التحركات ونبرات الصوت والإيقاع، بل أفضل العمل انطلاقا من منظومة هي بمثابة تشكيل بصري للفضاء من خلال خلق صور تترك هامشا أكبر للمفاجأة والصدفة والتفاعل العفوي وتراهن أكثر على حرية الممثل وعلى ردود فعله التلقائية وعلى يقظته . ننطلق دوما من مساحة ذاتية صرفة ، نلتقط لفتة جمالية صغيرة ، نفككها إلى أن تتحول بسلاسة إلى منبع تتدفق فيه صور مكثفة ، سرديات متعددة و نماذج إنسانية تحمل حيوات تشتبك مع الهشاشة الإنسانية ، تلك الهشاشة التي تطفو على سطح الصورة كلما حاول السرد حجبها . هشاشة إنسانية معززة بتأمل جمالي خالص . من هنا تنطلق شخصياتنا لتفعـل و لتحكي ، وهي تأخذ في نفس الوقت مسافة عما تحكي ، تبتعد عنه لتعود إليه في النهاية بصورة أوضح. ولتفجير طاقة السرد البصري ، نحتاج أولا إلى تفجير الطاقات التجريدية للممثل حتى يصبح متجانسا مع باقي مفردات المشهد المسرحي و ما يتطلبه ذلك من اشتغال على الجسد وطاقاته الشعرية ، على الفضاء واحتمالاته الجمالية ، على الصورة كتشكيل من خلال الملابس ، المواد ، الضوء، الظل ، العتمة ، و على الموسيقى باعتبارها عنصرا دراميا و شخصية أساسية و ليس زخرفا إضافيا .. تستدعي الصورة هنا تعبيرا دقيقا من خلال فن البساطة والتقشف باعتباره فلسفة عملية ، من خلال البحث في التفاصيل الدقيقة، عن السهل الممتنع ، عن تلك البساطة الممتلئة بالجمال وبالمعنى. هذه الجمالية تجد أصولها في الفنون الأخرى حيث نبدأ من إلغاء الحدود بين التخصصات الفنية و نستلهم من الفنون البصرية و التشكيلية و الهندسة المعمارية والسينما لإنشاء مسرح بليغ بصريا . للإشارة ، فبداياتي الأولى لم تتشكل على خلفية مسرحية ، بل كان لدي ولع بالفنون التشكيلية والبصرية والخط العربي و فن الرقص و السينما . و لبلورة التصور السينوغرافي الذي يستطيع احتواء التصور الاخراجي لهذا العرض ، وجدنا ضالتنا من خلال الاستلهام من أعمال المهندس المعماري السويسري بيتر زومثور وأعمال الرسام الأمريكي إدوارد هوبر الملقب بشاعر الوحدة و من الاعمال الفنية للفنان الفوتوغرافي سيباستياو سالغادو ..

فـن العمــارة

ولد المهندس المعماري السويسري بيتر زومثور سنة 1943 . درس التصميم الداخلي والهندسة المعمارية في كلية العلوم التطبيقية في بازل وفي معهد برات بنيويورك .عمل أستاذا في أكاديمية الهندسة المعمارية بالجامعة السويسرية الناطقة بالإيطالية بين 1996 و 2008 ، و أستاذا زائرا في عدد من الجامعات العالمية كمعهد التصميم بهارفارد .

أبدع 43 مشروعا ، بما في ذلك الحمامات الحرارية بشرق سويسرا التي جعلته يتمتع بشهرة دولية واسعة . هو صاحب مفاهيم وضوابط واضحة واختيارات دقيقة في انتقاء مشاريعه . كان مسعاه دائما هو تحقيق مشاريع خارجة عن المألوف و التي تتحدى الجميع وتتحدى ما أنجزه هو نفسه . تتمتع ابداعاته بحس سحري وغامض، وبغلاف جمالي يلف البنايات التي اشتغل عليها، كالحمامات الحرارية التي استوحينا منها تصورنا الأول ، برك مائية تسيجها و تتخللها جدران واحجار مستخرجة من التلال المحيطة بها ، ويحلو للبعض وصفها بأنها قصة حب بين الحجر والماء .

انطلق بيتر لبلورة تصوره من خلال مفارقة صادمة . كيف يمكن تصميم مسبح كبير بشكل غير مألوف؟ المسبح هو مساحة واحدة ممتدة لا فواصل فيها سوى الماء و من تم فهو فضاء رتيب ككل المسابح . قرر بيتر زرع الحياة و تنويع هذا الفضاء من خلال زرع بعض الجدران داخل المسبح ليجعله فضاءا متعددا حسب تشكيل الجدران . و بدل أن يكون المسبح مفتوحا على الفضاء الخارجي و على رحابة السماء جعله فضاءا داخليا سريا غامضا يجعل السابح يعيش تجربة تأملية في ذاته و في صوره المنعكسة على صفحة الماء . في نفس المنحى اخترنا فضاءا هندسيا يعبر عن البورجوازية الجديد في اغترابها ووحدتها . فضاء واحد يتداخل فيه البعد الداخلي و الخارجي و يسمح للجران أن ترسم حدوده . تصبح الجدران شاشة تسرد مؤشرات زمكانية، كما تعرض عناوين المشاهد ونصوصا مجاورة وقصائد وصور و بورتريهات و ترجمة عربية لمقاطع ترد في العمل باللغة الفرنسية. فضاء ينتهي في المقدمة عند حوض مائي طويل.

يحضر الماء ، كعلامة على الحياة في العديد من الحضارات ، منذ بداية العرض ليرمز الى الجفاف بشكل مختلف حيث نجد أغلب التصورات الاخراجية لمسرحية لوركا تنطلق من الرمل و التراب للتعبير عن التيمة الرئيسية لمأساة يرما . اخترنا أن نعبر عن الشيء بغيابه و بالصورة النقيضة له. يحضر الماء هنا ليعوض صوت بكاء الطفل كوعد المطر الكاذب الذي سيسقي هذه الصحراء الحديثة مجرد وعد مادام انه يبقى صوتا فقط بحيث لا يسقط المطر نهائيا في "سماء أخرى" . الماء نقي مادام يجري و يتجدد في حركته و جريانه . أما الماء الراكد في البركة فهو ماء ميت ، مرآة لإخفاقات وإحباطات الحاضر . هو أيضا وعد بحياة أخرى ، تجسيد للحلم بعبور البحر الأبيض المتوسط و الهجرة نحو أرض و سماء أخرى . يصبح الماء وعاء للموت نفسه في النهاية تطفو جثة الزوج ، و حيث تقتل البطلة زوجها خنقا تحت وميض المصورة و كأنه وابل من الرصاص يقذفه سلاح رشاش قبل أن يصبح وميضا متقطعا وسط العتمة و كأنه نداء استغاثة قارب ظل طريق في ظلمة المحيط.

يضل الرمل غائبا تقريبا . طيلة العرض. او بالأحرى يضل مستترا في مكان ما حتى تصل المواجهة بين الزوجين الى نقطة اللاعودة ، عندها يخرج الرمل من المهد ، مثل رحم لا يلد سوى الغبار ، مثل سر أو حقيقة مفجعة .

الـفن التشكيــلي

«ادوارد هوبر» هو رسام أمريكي واقعي استطاع أن يخلد عبر الرسم بلغة فنية واضحة لحظات الاغتراب والتيه والعزلة التي تواجه الإنسان في المدن الحديثة . نجد موقفا دراميا في كل لوحة من لوحاته ، يتصل بقصة لا يسرد منها سوى تلك اللحظة التي أوقفها زمنياً تاركاً للمتلقي مساحة كبيرة من الخيال . تتكئ هذه اللوحات في أغلبها على مواضيع العزلة والشعور بالوحدة ، سواء كان الفرد وحيداً بالفعل ، منعزلاً في مكان يخلو من الآخرين كغرفة في منزل أو في فندق، أو داخل عربة قطار ، أو كان محاطاً بعدد من الناس في مكان كمقهى أو ردهة فندق، أو مسرح لم يمتلئ بعد بالجمهور ، لكنه يشعر بالوحدة بسبب انعدام التواصل الحقيقي بينه وبينهم. وكثيراً ما نجد النافذة ، التي تلعب دوراً مهماً في اللوحة ، لأنها تُظهر العالم الخارجي المنعزل عنه البطل ، وفي أحيان أخرى يكون المتلقي في الخارج ، يرى البطل عن بعد من خلال نافذة غرفته ، بشكل غير كامل ، فربما يرى جزءاً من جسد البطل أو البطلة فقط .

كان هوبر يرسم النساء كثيراً، ويبدو مأخوذاً بغموضهن، وأسرارهن الخفية وبالحكايات الكثيرة التي يمكن أن يرويها وراء امرأة تجلس وحيدة صامتة ، في مقهى أو عربة قطار .

لوحتي «نافذة الفندق» و «غرفة الفندق» اللتان رسم هوبر امرأة تجلس وحيدة تتطلع عبر النافذة في الاولى، و في الثانية امرأة تجلس على السرير ، في وضع حزين ، تمسك بورقة - هي رسالة على الأرجح ، تلقتها أو ستتركها لأحد - وإلى جوارها حقائب ، فهي إما على وشك المغادرة، أو أنها وصلت للتو ولم تقم بعد بفتح الحقائب ،كانتا مرجعية مهمة في استلهام الجو العام و طبيعة العلاقات و حتى طبقات الضوء في مسرحية "سماء أخرى" . انتقلت اشكال العزلة و الاتواصل من هاته اللوحات للمسرحية و انتقلت معها الجدران والنافذة و السماء و البحر و الضوء الهارب من او نحو الخارج.

التصــوير الفوتوغرافي

ولد سباستياو سلغادو في 1944 في البرازيل، ودرس الاقتصاد، لكنه بعد رحلة لأفريقيا عام 1973، قرر الانتقال للتخصص في فن التصوير الفوتوغرافي . يعتبر واحدا من أكثر المصورين شهرة و تقديرا في التاريخ. في صوره بالأبيض والأسود ، نستكشف سحر عدسته وإحساسه العالي ورسالة "حب بالأبيض و الأسود " للإنسان و للأرض . اشتهرت صوره من خلال تنويعات الضوء والظلام ، والأبيض والأسود، على استكشاف جوانب خفية من حياة ما زالت عذراء ، لم تُكتشف بعد في عدد من بلدان العالم ، من شابات يتجملن في إثيوبيا بوضع الأقراص الخزفية في شفاههن ، ورجال يضعون على رأسهم قبعات مصنوعة من النباتات ، أو تلك الوجوه المرسومة بالطلاء الأبيض . صوره هي بمثابة وعاء يقيم فيه الضوء، و أصل كلمة "فوتو-غرافيا"، هو "الكتابة بالضوء (..) هي الفن الأقدم في العالم ، لأن الإنفجار الكبير أثناء خلق الكون كان كناية عن ومضة الضوء الأولى للخلق (..)النور -حسب تعبيره – هو لغة المصور الذي يعشق الأسود والأبيض

لان تنويعاتهما هي أغنى من كل الألوان . الضوء في الصور مصدره الذات، يخزنه كل مصوّر في أعماقه."
جال سالغادو لسنوات و هو يصوّر الرعب والجروح الإنسانية والموت والطفولة . صور العديد من البورتريهات و الكثير من الخوف الذي يسكن العيون الصامتة .

ان تحول طبيعة الشخصية الرئيسية من زوجة بدوية عاطلة الى مصورة فوتوغرافية معاصرة يجعلنا في مواجهة أسئلة أساسية تصب في جوهر موضوع المسرحية . ما هي الصورة ؟ هل تعوض صورة الشيء الشيء نفسه؟ يقدم سالغادو فن التصوير ببلاغة –كما تعرض لذلك عدد من الفلاسفة– على أساس انه فن الحياة و الموت. الصورة الفوتوغرافية في الأصل هي سطح بارد جامد لا حياة فيه ، إطار للحظة مستقطعة من الزمن و ذكاء الفنان هو الذي يولد الحياة ذلك هذا الفضاء الميت. كذلك هي لوحة الموناليزا التي تعج بالحياة الخفية رغم جمودها الظاهري . و هنا يكمن كنه الفاجعة عند يرما المصورة . أليس هذا هو مبتغى كل مصور و رسام و نحات ؟

من ناحية أخرى ، استطعنا ان نستخدم هذا الفن البصري كأداة وظيفية و دلالية وجمالية أيضا . يرمز الفضاء السينوغرافي ضمنيا الى مجسم داخلي للآلة التصوير الى غرفة التحميض المظلمة التي تكون الصور فيها في مرحلة جنينية غير مكتملة النمو الى الغرفة المضيئة -حسب تعبير ديريدا - . تتحول طبيعة آلة التصوير نفسها الى جهاز يكشف الأكاذيب والهشاشة ، الى مسدس يهدد ، الى مستودع للأسرار ، الى مدفعا رشاش يطلق النار على الزوج في النهاية، الى منار وسط غياهب البحر و السجن .

تكشف الصور التي يتم عرضها على الشاشة عن الجانب الخيالي و الرغبات المكبوتة للشخصيات. إنها ترى الحياة بشكل مختلف ، فهي تلتقط الحياة التي تأخذ فجأة أشكالا تشبه الحلم . حيث يتحول الجسد البشري الى تفاصيل حيوانية (الحصان كرمز للفحولة و الخصوبة و الى كائن هجين يحيلنا على وحش المينوتور في الاسطورة اليونانية) .

خـــلاصة

الفن التشكيلي و الفوتوغرافي و الهندسة المعمارية و الادب هي مراجعنا الأولى التي تتولد منها الصورة المشهدية بالإضافة الى شغفنا بالسينما والموسيقى اللتين تؤثران مباشرة على الطريقة التي نكتب به، و التي لا تنطلق من الادب بل من شعرية البصري أولا و التي تتجاور فيها فنون متعددة للكتابة بمواد متنوعة تحت ضوء الكشافات .

المسرح بالنسبة لنا هو فن الاستعارة و البلاغة القادرة على خلق المعنى المجرد وجعله مرئيا . هو فن خلق و انتاج صور جمالية و جدلية قادرة على إنتاج المعنى و على سحر الحواس و على صناعة الأسئلة .